# مفهوم الخطاب الديني
# وتحولاته بين سلطة القول وقوة الفعل

**إعداد**
**محمد مشرف يوسف خضر**
أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية كلية الآداب _ جامعة طنطا

**المستخلص:**

إن الخطاب الديني في المجتمع المسلم، الذي تسوده عقيدة الإسلام، وتحكمه شريعته، وتتجلى فيه قيمه الأخلاقية والسلوكية- هو الخطاب الطبيعي الذي يدير الحياة، ويقود مسيرها، ضابطا لكل حركة من حركاتها على مراد الوحي؛ وهو خطاب يمتلك القدرة على التحول من أن يكون كلاما لأن يصير فعلا، انتقالا من الأفكار، التي تنضبط بضابط الوحي ونصوصه ومقاصده، إلى الأقوال القادرة على إحداث الانفعال والتأثير في نفس المتلقي، ومن ثم يكون التأثُّر فالتحول في السلوك الناتج عن تغير القناعات والتصورات والأفكار، للفرد، وللمجتمع، وللأمة؛ فتتحول الإرادة البشرية لتكون هي إرادة الله اجتهادا في تلقى النص القرآني والعمل به وبما فيه؛ فيكون الفعل، بعد ذلك، ويكون التغيير المادي نتيجة طبيعية تتغير بها الحياة، وكأن إصلاح الخطاب الديني، هو إصلاح حياة المسلم بكاملها، وتجديده تجديدها.

**الكلمات الإفتتاحية:** بلاغة الخطاب، الخطاب الديني، تجديد الخطاب.

## مفهوم الخطاب الديني
## وتحولاته بين سلطة القول وقوة الفعل

لقد توالت رسالات الله تعالى هُدى إلى البشر، توالت يجدد بعضها لبعض ما اندرس من الدين في الفترة بين اللاحق منها والسابق، حتى كانت الرسالةُ الخاتمة الخالدة، دينُ الله الذي أتمّه وأكمله واختص به محمدا، صلى الله عليه وسلم، واختصنا به معه. ولأنه الدين الخاتم فهو في حركة الحياة وتحولاتها دين متجدد في ذاته، لا يحتاج إلى شيء من خارجه، وإنما يحتاج فقط إلى وعي جديد وإلى فهم جديد، وإلى إدراك جديد؛ ثم يجري كل شيء بتوفيق الله وتهيئته وتيسيره، فيعود غضا متألقا كيوم نزل، وبيَّنه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لصحابته، وعاشه معهم، خطابا شاملا، ومثاليا، يحكم الحياة ويديرها وفق مراد الله.

وكان دافعنا للحديث عن تحولات الخطاب الديني، وعن تجديده، رغم كثرة السائرين في هذا الطريق، أننا- مع تقديرنا لكل ما قيل أو كتب حوله، ومع إفادتنا الكبرى من الجميع- ننطلق من رؤية مغايرة ومتجاوزة؛ تنبع أساسا من فهمنا أن الخطاب الديني في المجتمع المسلم، الذي تسوده عقيدة الإسلام، وتحكمه شريعته، وتتجلى فيه قيمه الأخلاقية والسلوكية- هو الخطاب الطبيعي الذي يدير الحياة، ويقود مسيرها، ضابطا لكل حركة من حركاتها على مراد الوحي، وبتعدد الجوانب المكونة لحياة ذلك المجتمع تتعدد جوانب الخطاب: فالاجتماعي، والثقافي، والسياسي، والاقتصادي... كلها مكونات للخطاب الديني، المهيمن على حياة المسلم، طبيعة وأصلا.

وهو فهم مستلهم من حقلي اللسانيات والبلاغة الجديدة بالأساس، وفيه يكمن الفرق الجوهري بين فهم علماء الدين للخطاب- حيث يقصرونه، في غالب الأمر، على الجانب اللغوي التلفظي، الذي يوظفه الدعاة في التعريف بالدين عقيدة وشريعة، فيما يعرف بخطاب الوعظ، وبين فهم اللسانيين والبلاغيين له، فهو عندهم يشمل كل جوانب الحياة في مجتمع ما، وله السلطة عليها، وهو يؤثر فيها ويغير منها، بتغييره المجتمع؛ فهو خطاب يملك القدرة على التحول من أن يكون كلاما لأن يصير فعلا، ولأن يكون حياة.

وهذا التحول يأتي من خلال آليات حجاجية تقنع وتستميل وتغير الداخل فيتغير معها الخارج فعلا وعملا وذلك من حيث إن "غاية كل حجاج أن يجعل العقول تذعن لما يطرح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان، فأنجع الحجاج ما وفِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب (إنجازه أو الإمساك عنه)، أو هو ما وفِّق على الأقل في جعل السامعين مهيئين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة"[١]

وسوف نتعامل مع الخطاب الديني بوصفه الخطاب الحق الذي نؤمن به، فهما واعيا، وإدراكا حرا، واستيعابا شاملا لمنهج الاستخلاف في كتاب الله تعالى وسنة رسوله الكريم، صلوات الله وسلامه عليه، في خطابه النبوي بأسره؛ خطاب يدعو في صفائه إلى كل خير، من عدلٍ تقوم به الدنيا، وإحسانٍ تسمو به الحياة وترتقي، وتواصلٍ تنمو به وتزدهر؛ وينهى عن كل شر، من الفحشاء والمنكر والبغي؛ هو منهج السلام الحقيقي الذي لن تنعم الدنيا إلا في ظلاله، أسرة إنسانية واحدة، متآخية متعاونة متكافلة متراحمة متحابة.

---

[١] عبد الله صولة، الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال "مصنف في الحجاج– الخطابة الجديدة" لبرلمان وتيتيكاه، ضمن: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجموعة باحثين، إشراف: حمادي صمود، ط، كلية الآداب بمنوبة، تونس، د.ت، ص: ٣١٧

## الخطاب، وتحولات المعنى لغة واصطلاحا

في معاجمنا العربية، نجد الخِطاب والمخاطَبة: مراجَعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبةً وخِطابًا، وهما يتخاطبان. يقال خاطَبه يُخاطِبه خِطابا، وهو المواجهة بالكلام، ومنه قوله تعالى (وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا) [الفرقان: ٦٣] وخطَب الخاطِب على المنبر، واخْتَطَب يَخْطُبُ خَطَابَةً، واسمُ الكلام: الخُطْبَة. والخُطْبَة، مثلُ الرِّسَالَةِ، التي لَها أَوّلٌ وآخِرٌ. ورَجُلٌ خَطِيبٌ: حَسَن الخُطْبَة، وجَمْع الخَطِيب خُطَباءُ. وخَطُب، بالضم، خَطابةً، بالفتح: صار خَطِيبا. والخَطْبُ: الشَّأن أو الأمْر، صَغُر أو عَظُم، تقع فيه المخاطبة.[٢]

وفصْلُ الخطاب: أن يفصل بين الحق والباطل، ويميز بين الحكم وضده. كما جاء في قوله تعالى: (وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ) [ص: ٢٠] مما يشي بوجود سلطة للخطاب، ولصاحبه الذي أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وكأن الأمر يتعدى مجرد الإفهام إلى آفاق أرحب تقتضي وجود الحكمة ليكون فصل الخطاب، أي الكلام الواضح البيّن الذي لا يلتبس على السامع.

ويراه الزمخشري الإيجاز بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل؛ و" يتبينه من يخاطب به لا يلتبس عليه"[٣]

فالخطاب عند أصحاب المعاجم هو: الشأن أو الأمر. وهو: المواجهة بالكلام، أو مراجعة الكلام. فكأن كلمة خطاب في العربية، على هذا، تحمل دلالة الحوار، والتبادل الكلامي، والتواصل اللغوي، ويكون كل هذا في أمر ذي شأن.

## الخطاب في اصطلاح الأصوليين

يرتبط مفهوم الخطاب في التراث العربي بحقل علم الأصول، وبأبحاث الأصوليين التي تهتم بمعرفة خطاب الله تعالى، المتعلق بأفعال المكلفين، اقتضاءً أو تخييراً أو وضعاً؛ أي بمعرفة الحكم الشرعي.[٤]

---

[٢] انظر: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال (٤/ ٢٢٢)، والخطاب والمحاورة، عند الخليل بن أحمد، كلاهما بمعنى واحد هو: مراجعة الكلام (٣/ ٢٨٧)؛ وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م (٥/ ١٢٢)؛ ومجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٨، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م (١/ ١٠٣)؛ وأبو الفضل محمد بن مكرم بن على جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ (١/ ٣٦٠-٣٦١)؛ وأبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي (المتوفى: ٣٩٥هـ)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م (٢/ ١٩٨)؛ وأبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمي الزمخشري (المتوفى: ٥٣٨هـ)، أساس البلاغة، دار الفكر، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م (١/ ١٦٧)؛ ويقول صاحب أدب الكتاب: "والذي عليه أكثر الفقهاء، في فصل الخطاب، أنه فصل الحكم والقضاء. وقال الضحاك بن مزاحم: فصل الخطاب العلم بالقضاء" أبو بكر محمد ابن يحيى بن عبد الله الصولي (المتوفى: ٣٣٥هـ)، أدب الكتاب، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٤م، ص: ٢٧

[٣] أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت (٤/ ٨٢)

[٤] انظر: القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري المالكي (المتوفى: ٥٤٣ هـ)، المحصول في أصول الفقه، تحقيق: حسين علي اليدري، وسعيد فودة، دار البيارق، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م، ص: ١٠٧

ويقع مصطلح الخطاب عندهم في مباحث الألفاظ والدلالة. وهم يرون أن الكلام مفهوم أعم من الخطاب؛ فمن الكلام ما هو مقصود لخطاب الغير ومنه غير ذلك. والخطاب هو: الكلام الملقى لإفهام الآخرين. والنص هو الكلام المبِين القطعيُّ الدلالة.

فعند الإمام الجويني نجد الخطاب مشاركا للكلام والتكلم والتخاطب والنطق في المعنى، يقول " الكلام، والخطاب، والتكلم، والتخاطب، والنطق- واحد في حقيقة اللغة- وهو ما به يصير الحي متكلما"[٥] فهو يجعلها جميعا، ودون تخصيص من أفعال الحي المتكلم، والخطاب فيها كغيره.

وعلى عكس الجويني، وبعيدا عن تعميمه، يقدم لنا الآمدي في الإحكام مفهوما دقيقا للمصطلح، ويرى أن ذلك من الواجب قبل أي شيء؛ لضرورة توقف معرفة الحكم الشرعي عليه، فيقول في الخطاب: " إنه اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه... فالأقرب أن يقال في حد الحكم الشرعي: إنه خطاب الشارع المفيد فائدة شرعية"[٦]

فالخطاب إنما يكون كذلك إذا تحققت له اللغة المشتركة بين المرسل والمتلقي، وتحقق له من قبل قصد إفهام المتلقي؛ فإن الكلام لا يطلق عليه لفظ الخطاب إلا إذا كان متصفا بخصوصية قصد الإفهام، كما يشير إلى هذا صاحب المعتمَد في أصول الفقه، بقوله: " فإن لم يقصد إفهامنا انتقض كونه مخاطبا لنا؛ لأن المعقول من قولنا إنه مخاطب لنا، أنه قد وجه الخطاب نحونا، ولا معنى لذلك إلا أنه قصد إفهامنا"[٧]

ثم لا بد أن يتحقق له كذلك تهيؤ المتلقي لهذا الفهم.

ويوضح الكفوي مفهوم الخطاب، ويفصل القول فيه قبل الشروع في الحديث عن الخطاب القرآني وأنواعه، فيرى أنه: " اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيئ لفهمه. احترز باللفظ عن الحركات والإشارات المفهمة بالمواضعة وبالتواضع عليه عن الألفاظ المهملة، وبالمقصود به الإفهام عن كلام لم يقصد به إفهام المستمع فإنه لا يسمى خطابا، وبقوله: لمن هو متهيئ لفهمه عن الكلام لمن لا يفهم كالنائم والكلام يطلق على العبارة الدالة بالوضع وعلى مدلولها القائم بالنفس، فالخطاب إما الكلام اللفظي أو الكلام النفسي الموجه نحو الغير للإفهام، وقد جرى الخلاف في كلام الله.."[٨]

فهناك شروط للخطاب، منها ما هو متعلق بالمرسل ومنها ما يتعلق بالمتلقي ومنها ما يتعلق بالرسالة، فلا بد للمرسل أن يكون قاصدا إلى إفهام المتلقي، والمتلقي بدوره لا بد أن يكون متهيئا للفهم والتلقي، والرسالة بينهما لا بد أن تكون مما تواضع عليه الناس وألفوه. ثم يعرض للخلاف بين المعتزلة والأشاعرة، حول فهم المراد من كلام الله عز وجل، والمعنى القائم بالنفس، في إشارة إلى عنصر السياق وما له من أهمية في استكمال الحد.

---

[٥] الجويني إمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٩م، ص: ٣٢

[٦] أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجبيلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ (١/ ٣٦)

[٧] أبو الحسين أحمد بن علي بن الطيب البصري (المتوفى: ٤٣٦هـ)، المعتمد في أصول الفقه، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ (٣١٦/١)

[٨] أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، ص: ٤١٩

وينتهي تعريف الخطاب لدى التهانوي في كشافه، إلى أنه " بحسب أصل اللغة توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، ثم نقل إلى الكلام الموجّه نحو الغير للإفهام. وقد يعبّر عنه بما يقع به التخاطب، قال في الأحكام: الخطاب اللفظ المتواضع عليه المقصود به إفهام من هو متهيّئ لفهمه"[٩] في تركيزٍ واضح على البعد التداولي للخطاب، فالخطاب إنما يكون خطابا بتوجهه من مخاطِب إلى مخاطَب بنية الإبلاغ والإفهام، وتوصيل الرسالة، وتكون الرسالة بينهما مما تواضع الناس عليه، ولا بد أن يكون المتلقي المستمع متهيئا لفهم الكلام والاستجابة له، والخطاب يطلق على اللفظ الظاهر، وعلى المعنى المخبوء في النفس؛ كلاهما معا يكونان الخطاب، أو كل منهما خطاب قائم بنفسه. فهو يميز بين الكلام وعملية توجيهه، لطرف يتلقى ويفهم. وهو لا يشمل الحركة والإشارة غير اللفظية والإيماء، لأنها ليست لفظا، وكذلك الألفاظ المهملة لأنها غير متواضع عليها، وكذلك الكلام الذي لا يقصد به إفهام المستمع أو الكلام الذي يوجه لمن ليس متهيئا للفهم، كالنائم والمغمى عليه ونحوه ليس من الخطاب كذلك، لأن الفائدة في الخطاب إفهام المخاطب.[١٠] هو فقط يشمل التلفظ الكلامي ترتيبا على أن الخطاب القرآني، وهو المراد عند الأصوليين حال إطلاقه، خطابٌ إلهي لا نعلم منه غير النظم اللغوي وما يؤديه من معان، وكثيرا ما نجد استخدام خطاب الله تعالى، أو خطاب الشارع الحكيم... وهذا استخدام خاص بالأصوليين بعيدا عن الاستخدام اللساني الذي يتناول الخطاب في حالته البشرية.

فالخطاب في بيئة الأصوليين غيره في بيئة اللسانيين، فهؤلاء يبحثون خطاب الإنسان وأولئك يهتمون بما يتعلق بخطاب الرحمن، وإلا فإن لغة الخطاب ليست حروفا وأصواتا فقط، إنها الكلمات والإشارات والإيحاءات وكل ما من شأنه أن يكون وسيلة من وسائل التعبير؛ مطابَقة بين البلاغة والحجاج، الذي يَعُد كلَّ المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما، سواء كانت مكتوبة أم مقروءة، أم مشاهدة أم إشارية، فيما يرى بيرلمان Chaïm Perlman- من مستويات الحجاج، بما في ذلك التضمين والشواهد والأمثلة، حتى السخرية والمفارقة، هي عبارة عن حجة في ذاتها، وكذلك الاستعارة، التي تعد استدلالا قائما على المقايسة المكثفة؛ فالبلاغة لم تعد لباسا خارجيا للحجاج بل إنها تنتمي لبنيته الخاصة. وذلك من حيث علاقة الخطاب بالحجاج، الحاضر في معظم الخطابات الإنسانية المعاصرة، بتقنياته وآلياته، التي طورها بيرلمان، وتيتيكا Olbrechts-Tyteca، في نظرية متكاملة هي نظرية الحجاج، اعتمادا على حقول معرفية متنوعة، منها: البلاغة واللسانيات والأسلوبية ونظريات القراءة والتأويل... ما يعرف اليوم ببحوث البلاغة المعاصرة، وهي بحوث تهتم أساسا بأساليب إجراء اللغة، وتنويعات الخطاب ومقاماته وطبائع الناس المعنيين بكل تلفظ... كل هذه التقنيات الجديدة في علاقة المتكلمين بالمخاطبين وبالمقام تعد من نتائج التضافر بين البلاغة والبحوث اللسانية المعاصرة التي أثبتت أن اللغة ليست أداة للتواصل فحسب إذ فيها تثوي أبعاد الوجود وحقائقه، كما أنها الأقدر على استيعاب المناهج الأمبيريقية والاستفادة من بحوثها التقنية في التعبير عن الراهن وربطه بالسالف واللاحق في آن.[١١]

ولعل المدونة البلاغية العربية، برُمَّتها، إنما جاءت في خدمة الخطاب، بهدف التأثير في المتلقي، وإقناعه، من خلال التركيز على الخيارات البنيوية المتاحة، واعتمادا على القدرة على

---

[٩] محمد علي التهانوي (المتوفى بعد ١١٥٨هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م (١/ ٧٤٩)

[١٠] انظر: المعتمد في أصول الفقه (٣١٦/١)

[١١] انظر: سالم محمد الامين الطلبة، الحجاج مفهومه ومجالاته (نصوص مترجمة) عالم الكتاب الجديد، الأردن، ٢٠١٠م، (١٧٦ /٢)

Chaïm Perlman L'empire Rhétorique, Paris, Vrin, 1977, p : 53

إيراد المعنى الواحد بطرق متعددة، وتراكيب متفاوتة، تتمكن من الوصول إلى قلب المتلقي ووجدانه وعقله، توظيفا لكل المكونات الأسلوبية الموجودة في رسالة ما، مكتوبة، أو مقروءة، أو مشاهدة، أو حتى إشارية، مع الاجتهاد في تتبع خواص تراكيب الكلام، ومراعاةً لتفاوت المقامات... كل هذا من أجل التأثير في المتلقي، وتغيير تصوراته، ووجهة نظره.

**الخطاب عند المحدثين**

ترعرع الخطاب في الثقافة الإسلامية، إذن، في ميدان الأصولية، ثم في مجال اللسانيات الحديثة، سيجد نفسه محملا بحمولات دلالية جديدة، ولعل البيئة التي تناسبه أكثر ستكون في المجال الوظيفي التداولي، ولا بأس من أن تستضيفه حقول شتى، كل يمنحه شيئا من آلياته ويضيف إليه بعضا من خصائصه؛ فقد بدأ الخطاب بوصفه وحدة لسانية تتكون من جمل متعاقبة، كلاما مؤلفا لموقف خاص، بهدف تغيير موقف المخاطب، ثم جرت عليه التحولات، فصار يتجلى ممارسة لغوية اجتماعية تسمح بتمرير أفكار تسهم في تغيير الرؤى الكلية للمجتمع، من حيث كون الخطاب هو المانح العالم ملامحه ومظهره وكينونته، وهو المانح للسلطة، بل من حيث كونه سلطة هو في ذاته؛ سلطه مادية تملك القدرة على الفعل والتغيير.

فمع ظهور فوكو Michel Foucault في مجال اللسانيات البنيوية، الذي جاء محتشدا بثقافة فلسفية عميقة، حدثت طفرة في مفهوم الخطاب؛ فأصبح مرادفا لطرق التفكير ضمن إطار التفاعل الاجتماعي، حيث صار لا يقوم على أصول ألسنية فحسب، وإنما انفتح على عالم أرحب هو عالم التشكيلات الخطابية المحكومة بقواعد التكوين والتحويل، حتى ليمكننا اختزال الفعل الاجتماعي إلى فعل الحوار، أو التواصل، الذي ينحل بدوره إلى اللغة والثقافة.[١٢]

لقد صار الخطاب اصطلاحا فلسفيا " يقارب في الدلالة المقولة الفلسفية"[١٣] فهو لم يعد مجرد أسلوب للتبليغ، أو طريقة للتعبير عن الرأي والموقف، لكنه صار الوعاء المعبر عن العقيدة والروح والفلسفة والمذهب... أي أنه أصبح يمارس دوره في مناطق التأثير التي ينتج عنا تحولات كبرى في حياة الإنسان.

ولعلنا، بهذا، نحتاج إلى مزيد إيضاح لهذا الفهم الجديد للخطاب، مما يستدعي مراجعة سريعة لأهم الأفكار التي أدت إليه، في الفكر الغربي الحديث؛ فنعرض لتصورات بعض المفكرين البارزين، مثل: دومنيك منغنو، ونورمان فيركلف... ومن قبل الجميع يأتي ميشيل فوكو، الذي يعد هو الأصل الأول لهذا الفهم.

يذهب فوكو إلى اعتبار الخطاب مصطلحا لسانيا، يشمل كل إنتاج ذهني سواء أكان نثرا أم شعرا، منطوقا أم مكتوبا، فرديا أم جماعيا، ذاتيا أم مؤسسيا. إنه نظام تعبير مقنن ومضبوط، يحتوي على النصوص والأقوال، كما تفضي بمجموع كلماتها ونظام بنائها وبنيتها، " وللخطاب منطق داخلي، وارتباطات مؤسسية، فهو ليس ناتجا بالضرورة عن ذات فردية، يعبر عنها، أو يحمل معناها، أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو حقبة زمنية، أو فرع معرفي"[١٤] فالخطاب عنده يتشكل من مجموعة من البنيات اللغوية والعلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية، تمثل نتاجا حجاجيا، يتوسل به المتكلم إلى إيصال مضامين معينة إلى المتلقي، بهدف التأثير فيه،

[١٢] انظر: الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م، ص: ٩٤
[١٣] عبد العزيز بن عثمان التويجري، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، ٢٠٠٤م، ص: ١٥٩- ١٦٠
[١٤] انظر: ميشيل فوكو، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٤م، ص: ٤

ومن ثم تغيير منظومة المعتقدات والتصورات لديه. ويظهر فوكو بذلك في الخطاب بعدا سلطويا حين يقصد المتكلم إلى استخدام سلطة التأثير في المخاطَب.

ومن ثم يكون الخطاب هو أداة السلطة لإدارة القوة والتحكم في الآخرين، وتسيير الأمور وتوجيهها، بل إن الخطاب ليس أداة في يد السلطة فحسب، لكنه هو ذاته يمثل سلطة- سلطة تملك القوة ولديها القدرة لإحداث التغيير. وهو، على قول فوكو، ينقل هذه السلطة وينتجها ويقويها ويلغمها ويفجرها، ويمكن أن يجعلها هزيلة، أو حتى يلغيها " ففي الخطاب بالذات، يحدث أن تتمفصل السلطة والمعرفة"[١٥] سلطة يمارسها على ما حوله من بشر ومؤسسات، يمارسها على المجتمع. ومن ناحية أخرى يمثل الخطاب انعكاسا للسلطة، التي تعمل من خلال الخطاب، الذي يعد أحد عناصرها، وهي تعمل من خلاله.

ولعل أشكال المراقبة، والتتبع، والمنع التي تلحق الخطاب، تكشف بوضوح عن أهميته وخطورته، لهذا يرى فوكو أن " إنتاج الخطاب، في كل مجتمع، هو في الوقت نفسه إنتاج مراقب، ومنتقى، ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل، وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة"[١٦] لهذا فنحن دائما لا نستطيع قول كل شيء، نحن نخفي أضعاف ما نقول، ونمارس التورية والمعاريض تحسبا لمغبة التصريح.

إن الخطاب يتشكل من اللغة، وهو في الوقت نفسه يشكل اللغة، ويشكل المجتمع ويوجهه بما له من سلطة الفعل عليه. الخطاب عبارة عن " شبكة معقدة من العلاقات الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تبرز فيها الكيفية التي ينتج فيها الكلام كخطاب ينطوي على الهيمنة والمخاطر في الوقت نفسه"[١٧] ليقوم بدور التوجيه ويمارس سلطاته في تغيير الأفكار. " فالخطاب شيء آخر تماما غير مجرد حيز تودع فيه موضوعات تكونت سلفا، ويكدس بعضها فوق بعض. كما لو كانت تسجل وتدون"[١٨]

أما عند دومنيك منغنو Dominique Maingueneau [١٩] فإنه، واعتبارا للطبيعة التفاعلية للخطاب، الذي يجري بين مرسل ومتلق، يجعله ضمن حقل التداوليات التي تهتم بالعملية التواصلية،[٢٠] حيث كل ذات ترغب في إقامة تواصل مع ذات أخرى، في عملية تفاعلية يتشارك فيها الطرفان، وكلاهما يسعى إلى مجال الالتقاء الفكري، ويتحقق هذا بدراسة استعمال اللغة في الخطاب، من حيث هو نسق لغوي مشروط بسياقه، وبالنظر إلى اقتضاء العملية التواصلية

---

[١٥] ميشيل فوكو، إرادة المعرفة، ترجمة مطاع صفدي، وجورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠م، ص: ١٠٨- ١٠٩؛ وربما سبقت السفسطائية باكتشاف الإمكانيات التي تحملها اللغة كالمغالطة والقدرة على التمويه وإيقاع الخصم في الخطأ، ودور الخطابة في تغيير الرأي والموقف، ولعله منذ ذلك التاريخ، طرحت مسالة العلاقة بين اللغة والسلطة. انظر: الزواوي بغورة، بين اللغة والخطاب والمجتمع، ص: ٣٧

[١٦] انظر: ميشيل فوكو: نظام الخطاب، ص: ٨

[١٧] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط ٣، ٢٠٠٢ م، ص: ١٥٥؛ وانظر أيضاً: الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، ص: ٩٤، ٩٥

[١٨] ميشيل فوكو، حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦م، ص: ٦١

[١٩] أستاذ اللسانيات وتحليل الخطاب في جامعة السوربون ما بين عامي ٢٠١٢م و٢٠١٩م، نشر الكثير من الكتب حول اللسانيات الفرنسية، لكنه اكتسب شهرته الكبرى من خلال معجم تحليل الخطاب، الذي أعده مشاركة مع باتريك شارودو، وترجمه إلى العربية المهيري وصمود. (المرجع التالي)

[٢٠] انظر: باتريك شارودو ودومينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م، ص:١٨٢- ١٨٣

شريكين، أو أكثر، يتفاعلان فيما بينهما، فإن المحرك الذي يغذي هذه العملية هو المستوى المعرفي للمتواصلين (المدخر المعلوماتي)[٢١]

ويحدد منغنو خصائص الخطاب في مجموعة من السمات الأساسية: سمة المجتمعية: حيث تخضع الخطابات باعتبارها وحدات عبر- جملية للقواعد التنظيمية المعمول بها داخل مجتمع محدد. وسمة التوجيهية: حيث يكون الخطاب موجها، تبعا لوجهة نظر المتكلم، وكذلك لأنه يتطور بشكل خطي في الزمان. وسمة الفعل والتأثير: ففعل الكلام هو شكل من أشكال التأثير على الغير وليس فقط تمثلا للعالم. وسمة التفاعلية: حيث الخطاب نشاط لفظي بيني يتشارك فيه الزوج: أنا- أنت. وسمة السياقية: حيث لا وجود لخطاب إلا داخل سياق معين. وسمة الذاتية: فلا يعتبر الخطاب خطابا إلا إذا أرجع إلى ذات، إلى أنا تمثل في نفس الآن مصدرا لتحديد الشخصية بزمانها ومكانها، وكذا تحديد موقفها إزاء مقولها ومخاطبها. وسمة التبريرية: حيث يخضع الخطاب لعدة معايير، تضفي عليه المشروعية. وسمة التبعية: حيث لا معنى للخطاب إلا داخل عالم خطابات أخرى يشق عبرها مساره الخاص.[٢٢]

وتركيز منغنو على السمة التفاعلية للخطاب يرتبط بشكل وثيق بسمة الذاتية والتوجيهية وسمة الفعل والتأثير فلا وجود لخطاب بدون أنا منتجة (الذاتية) وموجهة له تطمح إلى التأثير في الآخر. فكل أنا (ذات) ترغب في إقامة تواصل مع أنا أخرى (ذات أخرى)، لكن مع ضرورة أن تكون كل ذات تشاركية تسعى من خلال خطابها إلى التدليل قصد الإفهام بهدف الوصول إلى التفاعل. فالخطاب لا يمكن أن يكون موضوع تناول لساني صرف؛[٢٣] لأنه، كما سبق القول، ليس هو اللسان، ولا هو الكلام، وإنما هو وسيط ذو طبيعة اجتماعية لغوية، إنه: اللغة بوصفها شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية.

وإذا انتقلنا إلى فيركلف[٢٤] Norman Fairclough فسوف نجده يحاول الربط بين التغيرات المجتمعية في جوانبها المختلفة، الثقافية والسياسية والاجتماعية... وأثر الاستخدام اللغوي في حدوثها وفي تحولاتها.

فالخطاب، فيما يرى، يشير إلى استخدام اللغة حديثا وكتابة، كما يتضمن أنواعا أخرى من النشاط العلاماتي مثل: الصور المرئية، والصور الفوتوغرافية، والأفلام، والفيديو، والرسوم البيانية، والاتصال غير الشفوي، كحركات الرأس أو الأيدي... إلخ. وهو استخدام غير بريء، غالبا، يمارس فيه الخطاب لونا من تقنين اعتداءات السلطة الاجتماعية وهيمنتها، من خلال التأثير المتبادل بين اللغة والبنى الاجتماعية.

اللغةُ ذاتها خطابٌ، فيما يرى فيركلف، أي شكلٌ من أشكال الممارسة الاجتماعية؛ اللغة جزء من المجتمع، والظواهر اللغوية هي ظواهر خاضعة للأعراف الاجتماعية، بل إن الظواهر الاجتماعية نفسها هي ظواهر لغوية، بمعنى أن النشاط اللغوي الذي يجري في السياق الاجتماعي هو جزء من الممارسات الاجتماعية، فالخلاف، مثلا، حول معاني مصطلحات مثل الديمقراطية

[٢١] انظر: أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية– بنية الخطاب من النص إلى الجملة، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٣م، ص: ١٦- ١٧

[٢٢] انظر: شارودو منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص: ١٨٢- ١٨٤؛ ونبيل موميد، حد الخطاب، ص: ٩٢

[٢٣] انظر: شارودو منغنو، معجم تحليل الخطاب، ص: ٣٨

[٢٤] أستاذ بجامعة لانكستر، متخصص في اللسانيات، وهو أحد أهم مؤسسي تحليل الخطاب النقدي وتطبيقاته في مجال علم اللغويات الاجتماعية، له عدد كبير من المؤلفات، منها: اللغة والسلطة، واللغة والعولمة، والخطاب والتغير الاجتماعي، وكلها ترجمها إلى العربية محمد عناني. مراجع مذكورة ضمن هذا البحث.

والتأميم والإمبريالية والاشتراكية والتحرير والإرهاب... هو خلاف يمهد لتحولات وممارسات اجتماعية، ويعظم هذا الأمر في الممارسات السياسية.

اللغة سيرورة اجتماعية لكنها سيرورة مشروطة بالجوانب غير اللغوية من المجتمع.[٢٥] وفي مقدمة كتابه التأسيسي (اللغة والسلطة) يحدد هدفين للكتاب، أولهما: المساعدة على تصحيح ظاهرة التقليل من أهمية اللغة في إنشاء علاقات السلطة الاجتماعية وترسيخها؛ والثاني هو المساعدة على زيادة الوعي بكيفية إسهام اللغة في تمكين بعض الناس من السيطرة على البعض الآخر.[٢٦]

لقد حاول العرب، وأفلحوا في أن يطوروا نظرية في النص خدمة لأداء المعنى ودراسته، متجاوزين حدود اللفظ، بل حدود الجملة؛ ليستقر عندهم أن المتكلم، في تعبيره عن حاجاته لا يتكلم بألفاظ، ولا بجمل، ولكنه يتكلم من خلال نص؛ " فاتسعت بهذا أمامهم دائرة البحث الدلالي. وانتقلوا من البحث في مفردة أو جملة إلى البحث في خطاب يتم فيه تحميل المفردات والجمل بدلالات يقتضيها موضوع الخطاب"[٢٧]

وربما اقترب مفهوم مصطلح الخطاب الذي نشأ في بيئة الأصوليين عند العرب القدماء من مفهومه الحديث، الذي توزعته بيئات متعددة أشهرها بيئات اللسانيين والفلاسفة والبلاغيين وعلماء الاجتماع عند مفكري الغرب. فعند كورتس[٢٨] Joseph Courtés مثلا، نجد دائما علاقة لزومية بين القول والنص، وبين الخطاب والتلفظ. والخطاب عند الأصوليين يشمل النص، الذي يعنى الإظهار والتراكم والتعيين ومنتهى الشيء؛ النص عبارة عن جمل متراكمة، تظهر ما خفي وتعينه، وهو عند الأصوليين مثل الخطاب، يقصد به الأمر، أو النهي، أو الإخبار، أو الخبر... وأما الخطاب فهو يقوم بين طرفين متخاطِبين، ويشمل النص، فهو أعم منه. وعلى أساس هذا التقريب، يرى محمد مفتاح أن "ما ورد في الثقافة العربية الإسلامية يتطابق، أو يكاد، مع ما هو في الثقافتين الفرنسية والإنجليزية"[٢٩]

والذي نخلص به من كل هذا أن الخطاب حدث كلامي دلالي تداولي، ناتج عن وحدة لسانية تتكون من جمل متعاقبة تتميز بالترابط والانسجام، تستخدم فيه اللغة حديثا وكتابة، ويتضمن أنواعا أخرى من النشاط العلاماتي مثل: الصور المرئية، والصور الفوتوغرافية، والأفلام، والفيديو، والرسوم البيانية... والاتصال غير الشفوي، مثل: حركات الرأس أو الأيدي... كل ما يمكن أن يمثل نظاما من أنظمة الاتصال المجتمعي المتاحة؛ يتم إنتاجه لمقام معين، ويتوسل به المتكلم إلى إيصال مضامين معينة إلى مخاطب، حقيقي أو افتراضي، بهدف التأثير فيه وتغيير موقفه، أو حتى الهيمنة عليه من خلال تغيير منظومة المعتقدات والتصورات التي يخضع لها؛ ليكون الفعل، بعد ذلك، ويكون التغيير المادي نتيجة طبيعية تتغير بها الحياة.

---

[٢٥] انظر: نورمان فيركلف، اللغة والسلطة، ص: ٤٢- ٤٣

[٢٦] انظر: السابق، ص: ١٥

[٢٧] منذر عياشي، اللسانيات والدلالة (الكلمة)، مركز الإنماء الحضاري، حلب، سورية، ط١، ١٩٩٦م، ص: ٧

[٢٨] جوزيف كورتيس J. Courtés من أهم أعضاء مدرسة باريس السيميائية، وتلميذ غريماس A. J. Greimas وشريكه في بعض المؤلفات.

[٢٩] محمد مفتاح، بعض خصائص الخطاب، علامات في النقد، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ج ٣٥، مج ٩، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، ص: ٩

### ٢- الدين بين اللغة والاصطلاح

أما الدين في اللغة فمشتق من الفعل الثلاثي: دان- يدين، دِينا ودِيانة، وهو يتعدى بنفسه؛ فنقول: دانه، بمعنى ملكه، وحكمه، وساسه، ودبره، وقهره، وحاسبه، وقضى في شأنه، وجازاه، وكافأه. ويتعدى باللام؛ فنقول: دان له، بمعنى أطاعه، وخضع له. ويتعدى بالباء؛ فنقول: دان به، بمعنى اتخذه دينا ومذهبا، أي اعتقده أو اعتاده، أو تخلق به.[٣٠]

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز، بعد بحث مطول في أصول الكلمة: " وجملة القول في هذه المعاني: اللغوية أن كلمة (الدِّين) عند العرب تشير إلى علاقة بين طرفين يعظِّم أحدهما الآخر ويخضع له. فإذا وصف بها الطرف الأول كانت خضوعا وانقيادًا، وإذا وصف بها الطرف الثاني كانت أمرا وسلطانا، وحُكما وإلزاما، وإذا نظر بها إلى الرباط الجامع بين الطرفين كانت هي الدستور المنظم لتلك العلاقة، أو المظهر الذي يعبر عنها. ونستطيع أن نقول: إن المادة كلها تدور على معنى لزوم الانقياد، ففي الاستعمال الأول، الدِّين هو: إلزام الانقياد، وفي الاستعمال الثاني، هو: التزام الانقياد، وفي الاستعمال الثالث، هو المبدأ الذي يُلتزم الانقياد له"[٣١]

واصطلاحًا، فالدين هو: منظومة من القيم والمبادئ والأحكام العامة والشاملة التي شرعها الله لعباده، وأوجب عليهم اتباعها، ووالى إرسال الرسل بها. وبذلك يكون كل ما يعتنقه الإنسان من أمور الغيب والشهادة ويعتقده ويدين به، تسليما لله تعلى وانقيادا له، هو الدين.

فالدين، عند الفخر الرازي، هو: " وضع إلهي سائق لأولي الألباب إلى الخيرات باختيارهم المحمود"[٣٢] وعند التهانوي، وهو الحد الأشهر، هو: " وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إياه إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل"[٣٣] هو منهج إلهي لصلاح الدنيا، والفلاح في الآخرة.

"والدين الذي جاءت به الرسل كلهم هو: عبادة الله وحده لا شريك له"[٣٤] ذاتا علوية مقدسة، مقدسة، لها كل الطاعة والخضوع، اختيارا، واقتناعا، ورضا، ومحبة؛ وبه يكون الصلاح في الحال والفلاح في المآل.

### ٣- الخطاب الديني

---

[٣٠] انظر: ابن فارس، معجم مقاييس اللغة (٢/ ٣١٩)؛ ولسان العرب (١٣/ ١٦٧- ١٦٩)؛ ومحمد عبد الله دراز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، دار القلم، الكويت، ١٩٩٠م، ص: ٣٠- ٣٢

[٣١] محمد عبد الله دراز، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، ص: ٣٠- ٣٢

[٣٢] فخر الدين الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب (٢٩/ ٢٧٣)؛ وعند علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري، المتوفى سنة ٧٣٠هـ، هو: "وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات والرضى المرضي ووصفه به اقتداء بقوله عز وجل ورضيت لكم الإسلام دينا أي اخترته لكم من بين الأديان" كشف الأسرار عن أصول فخر الإسلام البزدوي، تحقيق: عبد الله محمود محمد عمر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٨هـ، (١/ ١٣)

[٣٣] كشاف اصطلاحات الفنون للتهَانَوي (٢/ ١٤١)؛ وعند المناوي في التعاريف، هو: "وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول. كذا عبر ابن الكمال، وعبارة غيره: وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات. وقال الحرالي: دين الله المرضي الذي لا لبس فيه ولا حجاب عليه ولا عوج له، هو إطلاعه تعالى عبده على قيوميته الظاهرة بكل باد وفي كل باد وعلى كل باد وأظهر من كل باد وعظمته الخفية التي لا يشير إليها اسم ولا يحوزها رسم وهي مداد كل مداد" محمد عبد الرؤوف المناوي (المتوفى: ١٠٣١هـ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت- دمشق، ط١، ١٤١٠هـ، ص: ٣٤٤

[٣٤] أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ، (٤/ ١١٠)

الخطاب الديني، إذن، واعتمادا على حد التهانَوي، هو: توجيه الكلام المتعلق بالدين، والدائر حول موضوعه، نحو الغير لإفهامهم، وللتأثير في نفوسهم، ولتغيير مفهوماتهم وتصوراتهم؛ وهذا التعلق بالدين يتسع ليشمل كل شيء يتصل به الدين، الذي هو اختيار الخير والصلاح والفلاح في الدنيا، وفي الآخرة، من خلال التزام المنهج الإلهي المنزل وحيا على رسله الأكرمين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهذا الكلام المتعلق بالدين هو نتاج الفهم البشري القائم على النص المقدس (القرآن والسنة) والدائر حوله، منهجا لصياغة الأفكار والآراء والمواقف والتصورات، واجتهادا لاستنباط المراد من لفظ النص، ترجيحا، ودون قطع بالشهادة على الله؛ وغير ذلك مما يعرض العلماء من خلاله روح الإسلام وحقيقته، وكل ما من شأنه أن يؤثر في تشكيل تصورات فكرية وعقدية، تؤدي إلى تنظيم العلاقة بين الناس وبعضهم، وبينهم وبين الكون من حولهم، وبينهم وبين ربهم، ويتجلى في صور متنوعة منها فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء، وأحاديثهم، ومحاضراتهم، حول الدين في ذاته، أو في علاقته بالكون وبالحياة وعلومها المختلفة.

والخطاب الديني بطبيعته المتحركة، يمثل أقوى سلطة مادية تملك القدرة على التغيير المجتمعي، لأنه يقدم ما يقدَّم موقَّعا عن الإله، ومتحدثا باسمه، ويطلب ما يطلب وكأنها إرادة السماء؛ ولهذا تخشاه المؤسسات؛ فتوظفه لمصلحتها، أو تفرض عليه أشكالا من المراقبة، تجعله خاضعا لقبضتها، فتحد من سلطته، قدر الإمكان، إلى الحد الأدنى. لذلك فهو يحتاج إلى أجواء من الحرية الحقيقية حتى يمارس دوره الرائد في تغيير الدنيا، وهو قادر على تغييرها، وفي زمن قياسي؛ كما غيرها من قبل ولم يستغرق الأمر سوى ثلاثة وعشرين عاما، وكان القائم بهذا التغيير رجلا واحدا فردا فذا من قريش هو محمد، صلى الله عليه وسلم، وكان التغيير ابتداء وعلى غير مثال سابق.

وحين وجد المثال فإن الأمر لم يستغرق سوى سنتين ونيف، كما حدث مع الخليفة أبي حفص عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (٦١هـ- ١٠١هـ) رضي الله عنه.

**التجديد في الخطاب الديني**

نستطيع الآن، وقد اتضحت الأمور، أن نتتبع مستويات ثلاثة للخطاب الديني: بدءا من أصله الذي يعتمد عليه، ويصدر عنه وهو الخطاب القرآني مصدرا، وحْيًا، ثابتا، محفوظا، فيه تبيان كل شيء، وهدى ورحمة للعالمين؛ والخطاب النبوي شرحا له وتطبيقا، وهذا هو المستوى الأول.

يليه مستوى ثان يتمثل في فهم العلماء ورأيهم واجتهادهم، دورانا حول النص ومقاصده، وهي منطقة العمل في تجديد الخطاب الديني، منطقة متحركة تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال.

ثم مستوى ثالث تمثله الحركة المترتبة على فهم النص سلوكا، ومن ثم يصبح الخطاب في هذا المستوى الأخير هو خطاب الحياة الشامل لكل جوانبها، والضابط لحركتها على مراد الوحي في فهم العلماء واجتهادهم.

وهو بذلك خطاب كلي تندرج تحته الخطابات المختلفة التي تحكم الحياة في جميع جوانبها: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والعلمية... فكل هذه الخطابات في مجتمع مسلم تأتي منضبطة بضوابط هذا المجتمع، التي هي دائما ضوابط شرعية، مستمدة من نصوص الدين، بفهم علمائه.

ويكون هذا بعد الإحاطة الشاملة بظروف العصر وعلومه ومعارفه وثقافاته، واستيعاب أسئلته وحاجياته في خصوصية زمنها، وكذلك تمحيص جهود القدماء...[٣٥] وبعد درس تقنيات الخطاب، التي من شأنها أن تؤدى بالأذهان إلى التسليم، بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم.[٣٦]

**التجديد في اللغة**

والتجديد من جَدَّدَ يُجدِّد، تجديدًا، فهو مُجدِّد، والمفعول مُجدَّد. وجدَّده، وأجده، واستجده: صيره، أو لبسه جديدا، فتجدد. وجَدّ الثَّوبُ والشيْءُ يَجِدُّ بالكسر فهو جَدِيدٌ، وهو نقيض الخَلِق. والجِدّة، بالكسر: ضدُّ البِلَى، وأصل ذلك كله القطع؛ جدَّ الشيء قطَعَه وبابه رد، يقال: ثوبٌ جديدٌ، وهو في معنى مجدود: جُدَّ حديثاً أي قُطِعَ، كأن ناسجَه قطعه الآن؛ فإن كان مما لا يقبل القطع فعلى المثل من ذلك؛ فسمي كل شيء لم تأت عليه الأيام جديدا، فالجَدِيدَانِ، والأَجَدَّانِ: الليلُ والنهار، ومنه قولهم جَدّدَ الوضوءَ والعَهْدَ.[٣٧]

وجَدَّد الشيء بمعنى صيَّره جديدا؛ جاء في شعر العصر الجاهلي، من قول لَقيط بن يَعمُر بن خارجة الإيادي:[٣٨]

صُونوا حِيادَكمُ واجلُوا سُيوفَكمُ وجَدِّدوا للقِسِيّ النَّبْلَ والشَّرَعَا

يحذّر قومَه جيشَ كسرى، ويطالبهم بإعداد العدة الحربية اللازمة للقتال، ومن ذلك تجديد النبال القديمة، وإعادتها صقيلة جيدة البري جاهزة للقاء العدو.

ومن هذا المعنى ما جاء عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ"[٣٩]

---

[٣٥] انظر: محمد العمري، مدخل بلاغي لتحليل النص الشرعي "الاجتهاد مع النص" ضمن كتاب بلاغة الخطاب الديني، إعداد محمد مشبال، دار الأمان الرباط، ط١، ٢٠١٥م، ص: ٥٣

[36] Chaïm perelman, et lucie olbrechts-tyteca; traité de l`argumentation ; La nouvelle rhétorique, Editions de l`université de Bruxelles 1992, p 5

[٣٧] انظر: ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم (٧/ ١٨٦)؛ وأبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م (١/ ٤٥١)؛ وابن منظور، لسان العرب (٣/ ١١١)؛ والرازي، معجم مقاييس اللغة (١/ ٤٠٩)؛ وأبو منصور محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م (١٠/ ٢٤٩)؛ وأبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، (٧/ ٤٧٨)؛ ومحمد بن أبي بكر ابن عبد القادر الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، مختار الصحاح، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، ١٤١٥هـ، ص: ٤٠

[٣٨] هو لَقيط بن يَعمُر بن خارجة بن عوبثان الإيادي، شاعر جاهلي فحل، من أهل الحيرة، كان يحسن الفارسية واتصل بكسرى سابور، فكان من كتابه والمطلعين على أسرار دولته ومن مقدمي مترجميه. وهو صاحب القصيدة التي مطلعها (يا دار عمرة من محتلها الجرعا) ومنها البيت المذكور، وقد سقطت القصيدة في يد من أوصلها إلى كسرى فسخط عليه وقطع لسانه ثم قتله. له ديوان شعري مطبوع. انظر: ديوان لقيط ابن يعمر الإيادي، على رواية هشام بن الكلبي، شرح وتحقيق: محمد التونجي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ص: ٢١- ٢٣، ٧٤

فالتجديد، في ما لا يقبل القطعَ، كالثوب ونحوه: إعادةُ الشيء إلى أصله، إعادته إلى حالته الأولى التي كان عليها في أول أمره، وقبل أن تتعاقب عليه مؤثرات التغيير والتحول. هذا هو المعنى اللغوي، ومنه المعنى الاصطلاحي، فذاك قريب من قريب.

**التجديد في الاصطلاح**

وأما التجديد في الاصطلاح، أو التجديد الشرعي في الخطاب الديني؛ فلم يتفق القدماء فيه على مفهوم محدد، لكن أقوالهم جميعا جاءت تدور حول محور أساسي، هو العودة به مرَّة أخرى إلى صفائه الأول، وإلى حالته المثالية، التي كان عليها على عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومرجعهم في ذلك حديثه، صلى الله عليه وسلم: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."[٤٠] الذي أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم في سُننه، عن أبي هريرة، رضي الله عنه. وقد جاءت رؤاهم حول المراد بالتجديد في الحديث، متكئة في الغالب على دور المجدد وشروطه وصفاته.

فيكون تجديد دين الأمة بإحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، اللذين هما أصل الدين، يكون بالمعرفة الحقيقية بهما كليهما مع العمل بتلك المعرفة، ويندرس العمل باندراسها، وبانفصالها عن العمل، ومن ثم بتحولها مع مرور الزمن إلى معرفة وهمية، يزينها الشيطان ويُلبّسها فيسهل أن يدخل فيها ما ليس من الدين، فينسلخ المرء منه ظانا أنه ممن يحسنون صنعا، ومن ذلك تتوالى البدع والمحدثات، ويسود التقليد الفاسد القائم على الاتباع الشكلي والمحاكاة الفارغة.

يقول العلقمي فيما ينقله عنه شمس الحق العظيم آبادي: إن " المراد من التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات"[٤١] ويقول المناوي في فيض القدير: " يجدّد لها دينها أَي: يبين السّنة من البِدعَة، ويكثّر العلمَ وينصُر أهلَه، ويكسِر أهلَ البدعة، ويُذلهم."[٤٢] ولن يكون شيء من هذا إلا بتعليم الناس ما اندرس من أحكام الشريعة، وما ذهب من معالم السنن، وما خفي عليهم من علوم الدين، لن يكون إلا بأن ينشر المجدد علمه في الناس، بكل وسيلة ممكنة، وتحويله إلى منهج عملي؛ ومعرفة السنة تنفي البدعة، وتغلق باب الضلال في العلم والعمل، فما انتشرت بدعة إلا بإماتة سنة، وإحياؤها هو أفضل ما يقوم به المجدد، حيث العمل لا يكون مقبولا إلا بأن يكون خالصا صوابا، " فالخالص: أن يكون لوجه الله تعالى؛ والصواب: أن يكون على السنة"[٤٣]

والتجديد، كذلك، هو تنزيل الأحكام الشرعية على ما يجد من وقائع وأحداث، ومعالجتها معالجة نابعة من هدي الوحي.[٤٤] تنزيلها على واقع الحياة المعيشة، وإصلاحها بالدين الصحيح،

---

[٣٩] رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (١/ ٤٥)، رقم: ٥، وقال: رواته مصريون ثقات؛ وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف، الرياض، ١٩٩٥م (٤/ ١١٣)، رقم: 1585

[٤٠] رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٠٩) رقم:٤٢٩١؛ وصححه السخاوي، في المقاصد الحسنة (١/ ٢٠٣)، رقم: ٢٣٨، وقال: سنده صحيح ورجاله كلهم ثقات؛ والألباني في السلسلة الصحيحة (٢/ ١٤٨) رقم: ٥٩٩

[٤١] محمد شمس الحق العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م، (١١/ ٢٦٣)

[٤٢] الإمام الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي القاهري (المتوفى: ١٠٣١هـ)، فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م (٢/ ٢٨١- ٢٨٢)

[٤٣] الكشاف (٤/ ٥٨٠)

[٤٤] انظر: عمر عبيد حسنة، الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٩٨م، ص: ٢٠

كأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فينا يتنزل الوحي عليه، ويصلح به فساد الواقع، تماما كما كان على عهده، صلوات الله وسلامه عليه، ولربما كان واقعه أعظم فسادا وأشد حلكة، لكنه أصلحه؛ وسادت الدولة الإسلامية، واستمرت عزيزة قوية ما تمسكت بالمنهج الإلهي الذي يملك من المرونة ما يمكن به إصلاح كل فساد؛ وحين وقع التفريق بينها وبين منهجها، فتركته مضطرة، بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا- كانت الكبوة التي نرجو أن تقوم منها عن قريب، بإذن الله، وبوعد رسوله، صلى الله عليه وسلم.

**ثبات الدين وتحولات الحياة**

لقد تم الدين واكتمل، فلا نقص فيه ولا زيادة، ولا نسخ ولا تعديل؛ تم الدين وتمت معه نعمة الله عز وجل على هذه الأمة: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا)[المائدة: ٣] فقد أتم الله عليهم نعمته، وأكمل لهم دينهم، " فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم، صلوات الله وسلامه عليه... فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف... نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فمات."[٤٥] وكان صلى الله عليه وسلم، قال لهم في حجة الوداع: "تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛ كتاب الله."[٤٦]

وفي مسيرة البشرية، كان الله يبعث الرسل يجددون لها أمر دينها؛ " فلمَّا كان محمَّد، صلى الله عليه وسلم، خاتمَ النبيين، ولم يَكُنْ بعدَه رَسُولٌ، ولا من يجدِّد الدين لم يزل الله، سبحانه وتعالى، يقيمُ لتجديدِ الدّين من الأسبابِ ما يكونُ مقتضيًا لظهوره كمَا وَعَدَ به في الكتاب، فيُظهِر به محاسنَ الإيمان ومحامده ويعرف به مساوئ الكفر ومفاسده"[٤٧] فتظهر بين وقت وآخر شخصيات فذة، تعيد تجديد ما أصابه البلى والتحول في معالمه وأحكامه، وتنقيه مما علق به مما ليس منه. وتعيد للأمة شيئا من مجدها الذي يرتبط دائما بالدين، قوةً بقوة، وضعفًا بضعف، وبهذا تشهد مسيرتها على مدى تاريخها الطويل.

ولأنه رسالة الله الخاتمة إلى البشرية، حتى يرث الأرض ومن عليها، فقد وضع، سبحانه وتعالى، فيه من صفات المرونة وقابلية التطور مع تغير الحياة وتبدلها ما يؤهله لهذا الخلود؛ فهو دين يحمل أسرار تجدده تبعا لتغير الأحوال، ليظل المنهجَ الأمثلَ للحياة يقودها للخير في الحياة الدنيا، وللفلاح والنجاة في الحياة الحقيقية في الآخرة، فيسير مع التحولات المحتملة للبشرية، في الزمان وفي المكان والأحوال، وكأنه دائما دينُ العصر، وذلك من خلال منهج معجز، يقف النص فيه عند الكليات وقواعد التشريع، ويترك التفصيلات لاجتهاد الفقهاء؛ منهج يفصل في الثوابت ويجمل في المتغيرات.

يقول ابن القيم: " الأَحْكَامُ نَوْعَانْ: نَوْعٌ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالَةٍ وَاحِدَةٍ هُوَ عَلَيهَا، لَا بِحَسَبِ الأَزْمِنَةِ، وَلَا الأَمْكِنَةِ، ولَا اجْتِهَادِ الأَئِمَّةِ، كَوُجُوْبِ الوَاجِبَاتِ، وَتَحْرِيْمِ المُحَرَّمَاتِ، وَالحُدُوْدِ المُقَدَّرَةِ بِالشَّرْعِ عَلَى الجَرَائِمِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَهَذَا لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ تَغْيِيرٌ وَلَا اجْتِهَادٌ يُخَالِفُ مَا وُضِعَ عَلَيْهِ.

---

[٤٥] تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٣)

[٤٦] صحيح مسلم، رقم: ١٢١٨

[٤٧] أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المدني، القاهرة، ١٩٦٢م (١/ ٨٥)

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مَا يَتَغَيَّرُ بِحَسَبِ اقْتِضَاءِ المَصْلَحَةِ لَهُ زَمَانَاً وَمَكَانَاً وَحَالَاً، كَمَقَادِيرِ التَّعْزِيرَاتِ وأَجْنَاسِهَا وَصِفَاتِهَا، فَإِنَّ الشَّارِعَ يُنَوِّعُ فِيهَا بِحَسَبِ المَصْلَحَةِ"[٤٨]

فهذا الدين الحق، الصالح المصلح لكل زمان ومكان، راسخ بثوابته، المتمثلة في كليات الشريعة الشاملة، الكاملة، التي استوعبت الزمان والمكان والبشر على أحسن الوجوه وأتمها، في كل ما يخص العقائد الأساسية، والحقائق الإيمانية، والأخبار الغيبية، وأركان الإسلام، وأحكام العبادات من الصلاة والحج والصيام؛ وأحكام الحدود، وأحكام المقدرات المضبوطة بنصوص الوحي، كالأنصبة في الزكاة، والكفارات وحصص الإرث... وما ورد فيه نص صريح لا خلاف في فهمه، وما انعقد عليه إجماع حقيقي واضح، وأصول الأخلاق التي تعبر عن روح الدين، وتحمي الحقوق الأساسية للإنسان.

أما ما لم يقم عليه دليل قاطع، من نص صحيح، أو إجماع صريح، من أحكام المعاملات التي تتجدد فيها الحاجات، وتكثر فيها المتغيرات، وبعض فروع العبادات، والأحكام التي يمكن أن يعتريها التغيير والتبديل، نظرا لتغير الأحوال والمصالح والأعراف والوقائع المتجددة، وما يستجد من أحكام نتيجة ما يستجد من حاجات أو موضوعات لتغير الزمان والمكان، والأحكام التي تستند إلى الأعراف والعوائد لا إلى النصوص المحكمات، وكل ما يقبل التصرف فيه، وفق أصول التشريع وقواعده... في كل ذلك اكتفت الشريعة بإيراد المبادئ العامة والأُطُرِ الكليَّة.

وهنا يمكن للمجتهد أن يجتهد.

وللمجدد أن يجدد.

ودائما يكون الاجتهاد والتجديد وفق ما تسمح به أصول التشريع، أي دورانا حول ثوابت الدين والتزاما بحدودها.

فأصل الدين محفوظ وثابت بثبات نصوصه، وأي متغيرات يمكن أن تلحق به، تجديدا، أو اجتهادا فلا بد أن تكون وفقا لما في أصله، ومن خلال دليل ورجحان.

فالثابت هو الذي يسمح بوجود التغيير في المتغير، وهو الذي يحكم عليه.

**منابع التجديد في الخطاب الديني**

يخبرنا التاريخ أن الأمة الإسلامية في مسيرتها الطويلة تنقلت بين ازدهار باهر وتخلف شنيع، وأنها كلما عادت إلى دينها وأحيت خطابه وتمسكت به منهجا شاملا يحكم الحياة، كان لها الازدهار والتمكين، وما تهاونت فيه وفي التمسك به، إلا تراجعت فلم تلحق حتى بذيل الأمم.

فكان المسلمون أقوياء حين تمسكوا بمنهج الاستخلاف، الذي ارتضاه الله تعالى لهم، وأرسل به خاتم النبيين محمدا، صلى الله عليه وسلم، فوضعه خطابا متكاملا علما وعملا، فكانوا في عز وتمكين؛ واجهوا قوى الظلام العاتية التي كانت مهيمنة على الدنيا من وثنية، ويهودية،

[٤٨] أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م (١/ ٣٣٠- ٣٣١)

ومجوسية، ونصرانية... وانتصروا عليها جميعا بقوة إيمانهم، وثبات عقيدتهم، وأخرجوا الناس من ظلماتها الحالكة إلى نور الإيمان.

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، محذرا أجيال الإسلام من بعده: " وإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا، وَلَكِنِّي أَخْشَى عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوهَا"[٤٩] ويقول، صلى الله عليه وسلم: " فَوَاللهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"[٥٠] ولقد حدث، وتحقق ما حذر منه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتفت المسلمون عن دورهم الكبير في هذه الدنيا، ليتنافسوا في متاعها القريب الفناء، بل ليتقاتلوا دونه؛ فتلهيهم، وتنسيهم عدوهم المتربص بهم، ينتظر منهم غفلة فينقض عليهم ليعيد صولته مرة أخرى. وهذا العدو تشكل في هيئات مختلفة، وجاء في صور متعددة؛ لكن الهدف دائما واحد، هو القضاء على هذا الدين الخاتم، الهدف هو هدم الإسلام.

ولقد أجهد الغرب نفسه ليصنع لنا دينا يرضاه- دينا يترك الدنيا وينزوي في الزوايا والمساجد، التي تحولت هي الأخرى عن دورها الذي رأيناه في دولة الإسلام الأولى في المدينة المنورة، حيث كانت مصنعا للرجال، ومنطلقا إلى حياة العزة والكرامة في كل جوانبها، وفي شتى صورها الاجتماعية، والاقتصادية، والعلمية، والسياسية، والعسكرية... الدين الجديد لا علاقة له بالحياة، ولا بالأرض التي ما جاءت رسالة الإسلام أصلا إلا منهجا لعمارتها، والاستخلاف الحق فيها.

والخلاصة أن الخلاص من كل هذا في الخطاب الديني أن يعود جديدا مرة أخرى.

وهو خطاب يعتمد القول وسيلة إلى الفعل والتغيير المادي، سواء في تأكيده على وحدة العلم والعمل، أم في تأثيره الفذ الذي غير التصورات والأفكار والقناعات والإدراكات، للفرد وللمجتمع وللأمة؛ لتتحول الإرادة البشرية لتكون هي إرادة الله اجتهادا في تلقى النص القرآني والعمل به وبما فيه. وكأن إصلاح الخطاب الديني، من بعد، هو إصلاح حياة المسلم بكاملها، وتجديده تجديدها.

فالخطاب، كما مر بنا، منتج ذو طبيعة ديناميكية، كائن حي ينتج السلطة وينقلها، ويقويها، من خلال قدرته على التوجيه، وتغيير المواقف، والأفكار، والتصورات.

وربما تجدر بنا الإشارة هنا، ونحن في معرض الحديث عن قدرة الخطاب على التوجيه والتغيير، إلى ما فطنت إليه السيميائية في مراحل متأخرة، فيما نرى عند غريماس Algirdas j. greimas وجاك فونتانيّ Jacques fontanille في سيمياء الانفعالات،[٥١] من دور الانفعال وتحولاته في السرد، وما ينتج عنه من تفاعل المتلقي مع الحالة السردية انتقالا إلى الحالة الفعلية؛ فالانفعال عنصر أساس في إحداث الفعل؛ انتقالا من الانفعال (فائض الشعور) داخليا، وتأثرا بالخطاب، إلى الفعل (التعبير السلوكي) خارجيا، عبر وسيط مادي هو الجسد الذي يقوم بدور

[٤٩] صحيح البخاري، رقم: ١٢٧٩، ورقم: ٣٨١٦؛ وصحيح مسلم، رقم: ٢٢٩٦

[٥٠] صحيح البخاري، رقم: ٦٠٦١

[51] Algirdas j. greimas & Jacques fontanille, Sémiotique des passions: des états de chose aux états d'âme, Paris, éd. du Seuil, 1991

ولعله الكتاب الأهم لدى مدرسة باريس السيميائية، وجاء نتيجة جهد كبير استغرق اثني عشر عاما من العمل الدؤوب؛ وهناك ترجمة للكتاب قدمها سعيد بنگراد بعنوان: (سيميائيات الأهواء، من حالات الأشياء إلى حالات النفس) صدرت طبعته الأولى عن دار الكتاب الجديد المتحدة، عام ٢٠١٠م، في ٣٧٦ صفحة.

الترجمة السلوكية والفعلية لذلك الشعور. فالخطاب سبب مباشر في الفعل، وسواء في ذلك الخطاب الحواري التفاعلي، أم الخطاب المكتوب (النص) الفاعل في حالته السكونية، باعتباره رسالة يخاطب بها المرسِلُ المتلقي. لكن يبقى أن الخطاب يفارق النص في أنه يركز على اللغة والمجتمع، وعلى المحركات المختلفة التي توجهه، فهو لا يستقر على حال واحدة دائما، بتحرك المجتمع نفسه وقضاياه، فالخطاب له جمهور وله أهداف وله قصد معين في سعيه إلى التغيير. وهو يتشكل من مجموع النصوص والممارسات الاجتماعية.

الخطاب هو: النص في سياق التفاعل الاجتماعي.

تجديد الخطاب الديني، فيما نرى، يحتاج أول شيء إلى تجديد الشعور بقيمة الأمة التي ننتمي إليها، ومكانها، ومكانتها بين الأمم، وإلى تأكيد هذا الشعور من خلال تتبع آثار مجدنا الممتد من المنابع الأولى في مرحلة القوة المطلقة، مرحلة النبوة، حيث القوة في الدين، والقوة في الفهم، والقوة في العمل والتطبيق؛ حيث القوة في الأخذ بأسباب الحياة والاستخلاف فيها بمنهج السماء، ومرورا بمرحلة الثبات، في خلافة راشدة متمسكة بمفردات الخطاب النبوي في إدارة الدنيا، وضبط حركتها، ثم محاولات العودة إلى ذلك الخطاب، وإحيائه منهجا حاكما، وتجديده خطابا مهيمنا، وهي كثيرة في تاريخ الأمة، وكلها كانت تتسم بالقوة والتمكين.

وهذا الشعور دافع كبير للبحث في أسباب ذلك المجد وفي شروطه، وللحماس في تحويله واقعا معيشا مرة أخرى في أمة هي، بتقدير الله، خير أمة أخرجت للناس في أمرها كله، وفي كل الشؤون التي تتكامل لتحيا بها أمة من الأمم؛ في الشأن الاجتماعي، والشأن السياسي، والشأن الاقتصادي، والشأن العلمي، والشأن الأمني... أمرا في كل ذلك بالمعروف، وإنكار للمنكر، وإخلاصا فيه لله تعالى. وهي الأمة المخولة بقيادة البشرية في طريق العدل، والحق، والخير، والمساواة، والحرية، والكرامة... أمة تحمل كل مقومات القوة، والقدرة على التجدد والنهوض، مهما كان الذي يصيبها من تحولات، تحكمها سنن الله، وتؤدي بها أحيانا إلى الضعف والتخلف، لكنها مؤهلة لتغيير كل هذا حين تريد، بشرط أن تكون أرادتها هي إرادة الفعل والحركة، لا إرادة الحلم والأمل والأمنيات.

وتجديد الخطاب الديني، الذي نسعى إليه هنا هو التجديد الذي يجدد حياة هذه الأمة، في كل جوانبها ويعود بها إلى حال ازدهارها، وعزها ومجدها وريادتها، وقيادتها للدنيا بمنهج الحق والخير والنور الذي جاء به القرآن الكريم، بفهم السابقين الأولين الذين نزل فيهم، وبتطبيق رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أمامهم ومعهم حتى صار، وكادوا معه يصيرون، قرآنا عمليا وحيًّا بتطبيقه على الصورة المثالية التي أرادها الحق، وأراد أن يراهم عليها خلفاء في الأرض.

والخطاب الديني من فهم اللسانيين والبلاغيين الجدد خطاب يملك القدرة على التحول من أن يكون كلاما لأن يصير فعلا، انتقالا من الأفكار، التي تنضبط بضابط الوحي ونصوصه ومقاصده، إلى الأقوال القادرة على إحداث الانفعال والتأثير في نفس المتلقي، ومن ثم يكون التأثر فالتحول في السلوك الناتج عن تغير القناعات والتصورات والأفكار، للفرد، وللمجتمع، وللأمة؛ ليكون الفعل، بعد ذلك، ويكون التغيير المادي نتيجة طبيعية تتغير بها الحياة.

**أهم مراجع البحث**


الآمدي، أبو الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي (المتوفى: ٦٣١هـ)، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: سيد الجبيلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ

بغورة، الزواوي، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م

التهانوي، محمد علي (المتوفى بعد ١١٥٨هـ)، موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، تحقيق: علي دحروج، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م

التويجري، عبد العزيز بن عثمان، العالم الإسلامي في عصر العولمة، دار الشروق، ٢٠٠٤م

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، المدني، القاهرة، ١٩٦٢م

الجابري، محمد عابد، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٦م

الجويني إمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، الكافية في الجدل، تحقيق: فوقية حسن، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٧٩م

الحميري، عبد الواسع، ما الخطاب؟ وكيف نحلله؟ المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م

الرويلي، ميجان والبازعي، سعد، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٢م

الزمخشري أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي (المتوفى: ٥٣٨هـ)، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م

شارودو، باتريك ومنغنو، دومينيك، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري وحمادي صمود، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨م

الصولي، أبو بكر محمد ابن يحيى بن عبد الله (المتوفى: ٣٣٥هـ)، أدب الكتاب، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ،١٩٩٤م

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد (المتوفى: ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٥هـ

ابن الطيب، أبو الحسين أحمد بن علي البصري (المتوفى: ٤٣٦هـ)، المعتمد في أصول الفقه، تحقيق: خليل الميس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ

ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري المالكي (المتوفى: ٥٤٣ هـ)، المحصول في أصول الفقه، تحقيق: حسين علي اليدري، وسعيد فودة، دار البيارق، عمان، ط١، ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م

العظيم آبادي، محمد شمس الحق (المتوفى: ١٣٢٩هـ)، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٩٥م

عناني، محمد، من قضايا الأدب الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة، ١٩٩٥م

الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم البصري (المتوفى: ١٧٠هـ)، كتاب العين، تحقيق: مهدي المخزومي

فوكو، ميشيل،

- إرادة المعرفة، ترجمة مطاع صفدي، وجورج أبي صالح، مركز الإنماء القومي، بيروت، ١٩٩٠م
- حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، ١٩٨٦م
- نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٤م

ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم، السكوفي، المروزي، الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، أدب الكاتب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مكتبة السعادة، مصر، ط٤، ١٩٦٣م

ابن القيم، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، (المتوفى: ٧٥١هـ)، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م

المتوكل، أحمد، قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية– بنية الخطاب من النص إلى الجملة، دار الأمان، الرباط، ٢٠٠٣م

المناوي، زين الدين محمد عبد الرؤوف (المتوفى: ١٠٣١هـ)،

- التوقيف على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر، بيروت- دمشق، ط١، ١٤١٠هـ
- فيض القدير شرح الجامع الصغير، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م

ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم بن على جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ) لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ

يقطين، سعيد، تحليل الخطاب الروائي، الزمن السرد التبئير، المركز الثقافي العربي، المغرب، لبنان، ط٤، ٢٠٠٥م

# The concept of religious discourse

# And its transformations between the authority of speech and the power of action

**By**

**Muhammad Musharraf Youssef Khadr**

Assistant Professor, Department of Arabic Language,

Faculty of Arts, Tanta University

**Abstract:**

Religious discourse within Muslim society, governed by the Islamic creed and guided by its law, which manifests its ethical and behavioral values, is the natural discourse that manages and directs life. It serves as a regulator for every movement, aligning them with the intentions of divine revelation. It is a discourse that possesses the ability to transform from mere words into action, transitioning from ideas that are regulated by divine guidance, texts, and objectives, to impactful words that evoke emotions and influence the recipient. Consequently, this influence leads to a transformation in beliefs, perceptions, and ideas, both at the individual and societal levels. The human will transitions to align with the will of God, as an endeavor to receive the Qur'anic text, act upon it, and embody its teachings. Subsequently, actions become the natural outcome, and material change occurs as life transforms. It is as if reforming religious discourse is synonymous with reforming the entire life of a Muslim, renewing it in its entirety.

**Keywords:** Rhetoric of discourse, religious discourse, renewal of discourse